الكتاب المقدس وظاهرة العنف

يسود العنف عالمنا ومجتمعاتنا، إذ أينما تلفتنا نجد أنَّ ظاهرة العنف منتشرة في كل مكان ولا يخلو منها أي مجتمع. وفي الدول المتقدمة أخذت الناس تضج وتتذمر من استفحال ظاهرة العنف، لاسيما في المدن الكبرى. وبدأت الحكومات والسلطات المحلية بسَنِّ قوانين صارمة جديدة، وزيادة عدد رجال الأمن، واستخدام التكنولوجيا الحديثة لمحاربة ظاهرة العنف.

لكن هل ظاهرة العنف هي ظاهرة جديدة؟ للجواب عن هذا السؤال نقول: إن هذه الظاهرة وُجدت – مع الأسف – منذ أن وُجد الإنسان على الأرض. وربما نسمع عنها أكثر هذه الأيام، بسبب انتشار وسائل الإعلام وزيادة عدد السكان. ولقد حصلت أول جريمة قتل في فجر التاريخ عندما قتل قايين أخاه هابيل. والأمر الملفت للانتباه أن قايين حاول نكران جريمته. إذ عندما سأله الرب: أين هابيل أخوك؟ أجاب قائلا: لا أعلم. أحارس أنا لأخي. فقال له الرب:"ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الأرض." (تكوين ٤:١١و١٢)

نجد هنا بوضوح ومنذ البداية إدانة الله الشديدة للعنف، وليس هذا فحسب بل إعلان الله أن العقاب يجب أن يكون من نصيب كل من يقترف الجريمة. إن الله الذي خلق الإنسان على صورته ومثاله يريد من البشر أن يكونوا متآلفين محبين لبعضهم البعض، وأن يحلُّوا مشاكلهم ومنازعاتهم عن طريق التفاهم وليس بالعنف. لكن الإنسان بعصيانه على الله منذ البداية أصبح عبداً للخطيئة، وشوه بالتالي صورة الله، وصار أرضا خصبة لكل ما هو فاسد وضار. ولهذا نقرأ في سفر التكوين عن تردِّي حالة الإنسان. فيقول على لسان الله إن شر الإنسان قد كثُر على الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، وأن الأرض امتلأت ظلما. ولهذا لم يكن غريبا أن يقول الله: "أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم." (تكوين ٦:٧). وفعلا أرسل الله الطوفان الذي أهلك البشر جميعا، ما عدا نوح وأولاده الثلاثة مع زوجاتهم. والسبب لأن نوحا وجد نعمة في عيني الرب إذ كان رجلاً باراً وقد سار مع الله.

وبعد الطوفان أوصى الله نوحا وأولاده عدة وصايا، وكانت من بينها الوصية التالية: ".. ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان. من يد الإنسان أخيه. سافكُ دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه. لأن الله على صورته عمل الإنسان."(تكوين٩:٥-٦) كانت هذه من الشرائع الأولى التي سنَّها الله لتنظيم حياة الإنسان على الأرض. لقد خلق الله الإنسان على صورته وشبهه، لهذا ليس غريبا أن

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

يطلب الله محاسبة قاتل أخيه الإنسان. والعقاب يكون بالموت لأن سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه. ومن هنا كانت بداية عقوبة الإعدام التي سنتها القوانين الحكومية في معظم بلدان العالم، كعقاب لكل من يلجأ إلى القتل.

لكن هل كشفت لنا أسفار العهد القديم المزيد عن موقف الله تجاه ظاهرة العنف؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه الآن. كتب النبي داود في سفر المزامير بوحي من روح الله القدوس قائلا: "رجل الدماء والغش يكرهه الرب." (مزمور٥:٦) أما سليمان الحكيم فقد كتب عن ستة أمور يبغضها الرب. وكانت من بينها أيدٍ سافكة دما بريئا. وتكلم سفر إشعياء عن الأسباب التي جعلت الله يغضب على الشعب قديما وواحدة منها تتعلق بالعنف. إذ كتب يقول بلسان الله:"فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دما."(إشعياء١:١٥) هذا يؤكد لنا موقف الله الواضح تجاه العنف، فهو لن يسمع الصلاة للإنسان الذي تمتلىء أيديه بالدماء، أي يلجأ للعنف في حل مشاكله.

ويحدِّثنا العهد القديم أيضا عن حادثة هامة تؤكد لنا موقف الله هذا تجاه العنف. فقد قال الملك داود في نهاية حياته لابنه سليمان:"يا ابني قد كان في قلبي أن أبني بيتا لاسم الرب إلهي. فكان إليَّ كلام الرب قائلا قد سفكت دما كثيرا وعملت حروبا عظيمة فلا تبني بيتا لاسمي لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامي." (١أخبار الأيام٢٢:٧و٨) من المعروف أن الله وجد داود رجلا حسب قلبه وقد اختاره ليكون ملكا على الشعب، وهو الذي كان راعياً للغنم. لكن بسبب أنه خاض حروباً عديدة وسفك دماءً كثيرة نجد أن الله لم يسمح له ببناء الهيكل. وهذا يبين لنا مدى كراهية الله للعنف ولكلِّ مَن يقوم به.

قد يُطرح السؤال هنا: إذا كان هذا هو موقف الله تجاه العنف فلماذا سمح للعبرانيين في العهد القديم باللجوء للعنف؟ يقدم لنا العهد القديم جواباً واحداً واضحا حول هذا الموضوع. وهو أن الله سمح بالعنف لتأديب الشعوب الوثنية التي ازداد شرُّها كثيرا في تلك الأيام. لا بل أكثر من ذلك، أن الله لم يسمح للعبرانيين باستخدام العنف ضد هذه الشعوب إلا عندما اكتمل شرها. ولهذا نقرأ في سفر التكوين كيف أن الله كشف لإبراهيم أن نسله سيبقى أربع مئة سنة في أرض غريبة. وبعدها سيرجعون إلى أرض كنعان، والسبب لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً. أي كان يجب أن يكتمل ذنب الأموريين والكنعانيين، لكي يسمح الله باستخدام العنف ضدهم كتأديب لهم. (راجع تكوين١٥:١٣-١٦) وفي نفس الوقت أنذر الله العبرانيين أنفسهم أنه سيسلط عليهم الأعداء ويهلكونهم ويسبونهم إذا انحرفوا عن شريعة الله. وبتعبير آخر سيسمح الله لأعدائهم باستخدام العنف ضدهم. وهو الذي حصل بعدئذ مرات عديدة عندما سلك العبرانيون في طريق الشر وابتعدوا عن الله، فسلَّمهم الله لأعدائهم. وكانت آخر مرة عندما رفضوا المخلص المسيح، فتمَّت فيهم نبوءة المسيح بخراب أورشليم وهلاك الشعب في عام ٧٠ ميلادية على يد القائد الروماني تيطس.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

لقد تساءل النبي حبقوق قديما: لماذا يسمح الله بالعنف والظلم؟ (راجع سفر النبي حبقوق١) ومازال الإنسان حتى يومنا هذا يطرح نفس التساؤل. لكن الله أعلن موقفه منذ البداية كما لاحظنا، فهو يكره العنف والذين يقومون به. وتعلن لنا كلمة الله أن العنف كان نتيجة حتمية لسقوط الإنسان في الخطية.

لكن ما هو موقف المسيحية أو العهد الجديد من ظاهرة العنف؟ تحدث الرب يسوع المسيح عن ظاهرة العنف في موعظته على الجبل فقال:"قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم."(بشارة متى٥:٢١و٢٢). نلاحظ هنا أن الرب يسوع المسيح ذهب إلى أعمق من ظاهرة القتل. ومن المعروف أن القتل يبدأ بالحقد الذي يتجلى بالغضب ضد الشخص الآخر. وهنا نجد أن المسيح يعود إلى أساس المشكلة والتي تبدأ في قلب الإنسان. وهكذا وضع قانونا جديدا أسمى، إذ أكد أن من يغضب على أخيه باطلاً يكون أيضا مستوجباً الحكم.

إن المسيحية تعود إذن إلى جذور وأساس ظاهرة العنف، أي إلى الحقد والغضب الذي ينتج عنه. فعندما نستطيع معالجة الحقد في نفوسنا فمن البديهي أن يؤدي ذلك إلى القضاء على ظاهرة العنف قبل أن تستفحل. فمن غير المعقول أن يُقْدِمَ شخص ما على استعمال العنف ضد شخص آخر بدون أية خلفية أو سبب. لا بل إن المسيح ذهب إلى أبعد من ذلك. إذ قال أيضا:"سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضا." (بشارة متى٥:٣٨و ٣٩) هنا يؤكد المسيح أنه علينا أن لا نقابل الشر بالشر، بل الشر بالخير. أي علينا أن لا نواجه العنف بالعنف. ثم تابع المسيح كلامه فقال: "سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات." (بشارة متى٥:٤٣-٤٥) يطلب منا المسيح إذن لا أن نقابل الشر بالخير فحسب، بل أن نرتفع إلى درجة أسمى. وذلك بأن نحب أعداءنا ونبارك لاعنينا ونحسن إلى مبغضينا ونصلي لأجل الذين يسيئون إلينا ويطردوننا. فهل هناك أرفع من هذا المستوى الذي يريدنا المسيح أن نصل إليه؟ وهل بإمكاننا تحقيق هذا الأمر يا ترى؟ أم أنه شبه مستحيل؟

أما الرسول بولس فنجده يكتب وبوحي من روح الله القدوس، داعياً إلى نفس المبادئ التي نادى بها المسيح، فقال: "لا تجازوا أحدا عن شر بشر... إن كان ممكنا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس. لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء بل أعطوا مكانا للغضب. لأنه مكتوب لي النقمة أنا أجازي يقول الرب. فإن جاع عدوك فأطعمه. وإن عطش فاسقه. لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه. لا يغلبَنَّك الشر بل اغلب الشر بالخير." (الرسالة إلى رومية١٢:١٧-٢١) بالطبع إن الوصول إلى مثل هذا المستوى الرفيع بحاجة إلى قوة خاصة من روح الله القدوس، فنحن في طبيعتنا البشرية عاجزون عن السير في طريق المحبة العملية.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

لنلاحظ أعزائي أن الرب يسوع المسيح لم ينادِ بنبذ العنف فحسب، بل طبق في حياته وسلوكه مبدأ المحبة حتى لقاتليه. ويخبرنا الإنجيل المقدس، أنه عندما أتى تلميذه الخائن يهوذا الإسخريوطي للقبض عليه، مع جمع غفير من اليهود، تحمَّس بطرس واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. لكن المسيح قال له: "رد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون." (بشارة متى٢٦:٥٢) وهنا أكد المسيح المبدأ الإلهي الذي أعلنه الله منذ القديم، أن "سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه." ونجد عندها أن المسيح لمس أذن العبد وأبرأها. وعندما عُلِّق المسيح على خشبة الصليب نراه يصلي لله الآب قائلا: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون."(بشارة لوقا٢٣:٣٤) أي أن المسيح بدل أن يدعو الآب للانتقام من قاتليه طلب المغفرة لهم، أليست هذه هي قمة المحبة العملية؟ ولقد حذا استفانوس شهيد المسيحية الأول حذو سيده المسيح. إذ قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة جثا على ركبتيه وصرخ بصوت عظيم: "يا رب لا تقم لهم هذه الخطية." (أعمال الرسل٧:٦٠) أي طلب المغفرة لقاتليه من اليهود الذين رجموه بالحجارة.

لكن قد يسأل أحدهم: ألم يطلب المسيح من تلاميذه وقبل القبض عليه أن يشتروا سيفا؟ وللجواب نقول: نعم إن هذا صحيح. لكن المسيح أوضح السبب الذي لأجله طلب من تلاميذه هذا الطلب بالذات. إذ نجده يقول مباشرة: "لأني أقول لكم إنه ينبغي أن يتم فيَّ أيضا هذا المكتوب وأحصي مع اثمة. لأن ما هو من جهتي له انقضاء." (بشارة لوقا٢٢:٣٧) وهكذا نعلم أن سبب طلب المسيح من تلاميذه شراء السيف، هو إتمام النبوءة التي تنبأت عنه. والتي أكدت أن المسيح سيكون بين أناس اثمة. وعندما قال له التلاميذ: "يا رب هوذا هنا سيفان. فقال لهم يكفي." (بشارة لوقا٢٢:٣٨) أي أن المسيح أراد فقط التأكد من وجود السيف وليس استعماله. ولهذا استنكر استعمال السيف بعدئذ من قبل تلميذه بطرس.

لكن قد يسأل أحدهم: ماذا عن حق الدفاع عن النفس؟ ألا يحق للإنسان الدفاع عن نفسه عندما يتعرض لاعتداء ظالم؟ أجابنا الرسول بولس عن هذا السؤال عندما كتب قائلا: "إن كان ممكنا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس." (الرسالة إلى رومية١٢:١٨) على الإنسان المسيحي إذن بحسب هذا المبدأ الكتابي أن يسعى قدر الإمكان على مسالمة جميع الناس، حتى الذين يعتدون عليه ظلما. لكن هذا لا يمنعه أن يحاول رد الأذى عن نفسه بقدر المستطاع. إن طاقة الإنسان على احتمال الظلم محدودة، ولهذا فهو يحق له الدفاع عن نفسه. لكن عليه أن يطلب من الله أن يعطيه حكمة ودراية كيف يتصرف في مثل تلك الأوقات الصعبة الحرجة. وهو ما وصفه الرسول بولس بقوله: "حسب طاقتكم." مع العلم أنه لنا الوعد الكتابي من الله كمسيحيين حقيقيين: "لم تصبكم تجربة إلا بشرية. ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع التجربة أيضا المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا." (الرسالة الأولى إلى كورنثوس١٠:١٣). فهل تثق أخي المؤمن في أمانة الله وحفظه لك حتى في مثل تلك الظروف الحرجة؟

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service